رحلة في ذاكرة مضت (١-٢)

المحضار شاعر عظيم كثير العطاء عميق المعاني رصين القوافي

الأمناء ينثرها/ صالح حسين الفردي:

ارتبطت - كثيراً - بروائع الشاعر والملحن الرقيق صالح عبد الرحمن المفلحي، كغيري من أبناء جيلي الذين تذوقوا زمناً شعرياً غنائياً وفنياً وثقافياً وأدبياً وإبداعياً جميلاً منذ مطلع سبعينيات القرن الماضي حتى بداية تسعينياته، وقد كان من حسن حظي - كذلك - أنني آخر من تحدّث إليه، هذا الشاعر النبيل، قبل رحيله بأربعة أشهر، في الحادي عشر من فبراير من العام 2005م في منزله العامر بحي السلام بمدينة المكلا، في لقاء جمعني به والأستاذ الذي أشار إليه المحضار في رائعته: (إذا برقت من القبلة ترفّع فوق يا طارف) قائلاً: وخل سالم صفي يدوّر في الملف إن كان شيء عنده لحد خالف.

للقاء أكثر من حكاية

إن الحديث -اليوم -عن ذكريات ذلك اللقاء، وما علق بذاكرتي منه حتى اللحظة، يكمن في الأجواء الحميمية التي قضيتها بمعية هاتين القامتين الحضرميتين السامقتين، إذ كان التوفيق حليفي وأنا اقتحم عليهم جلستهم الرائقة، فقد ظللت لبرهة من الزمن أتأملهما وهما يتبادلان ذكريات زمنهم الذي مضى، ويحاولان استعادة ما تبقى منه في ذاكرتهما المتقدة.

المحضار في ذكريات الشاعر المفلحي

هذه الذكريات، التي لامست شغاف القلوب، استحضرت روح العبقرية الحضرمية الشاعر والملحن الكبير حسين أبوبكر المحضار، وتناثرت ذرات عطر مواقف ورحيق أشعاره ورقيق ألحانه في أجواء تلك الغرفة التي لا تكاد تتجاوز الأمتار الثلاثة - عرضاً وطولاً - ولكنها في تلك السويعات الجميلة ما برحت أن اتسعت فضاءً حضرمياً كونياً، جابت أجواءه تلك الحكايات وتوسدته حنيناً عميق الذكريات، فكنت كمن وقع على كنز ثمين، بدأت ذرات تراب التاريخ تنفض غبارها عنه رويداً رويداً، فانساب نهر الذكريات للعملاق المفلحي متخذاً مسالك حضرمية متعددة، معرجاً على أخاديد الأزمنة الحضرمية، نثاراً أريج عطره على تلك الأزمنة الجميلة، فكانت هذه شذرات من تلك النثرات العطرية المفلحية الحانية.

ما هي الأغاني التي تراها قريبة إلى قلبك من أغاني المحضار؟

الحقيقة، إن أغاني المحضار كلها أغاني جميلة، مثلما كان هو يتمنى أن تكون بعض أغاني في ديوانه، كان يتمنى (رافعات الشيادر - شبعة العيد - خرج ذا فصل) والتي أشار إليها الأستاذ بامطرف في مقدمة الديوان إلى أنها من أعظم الألحان والكلمات الحضرمية، أما أنا فأتمنى أن يكون لي الكثير والكثير من شعر المحضار.

سمعت أن المحضار في جلسة كان يقول: بيت المفلحي تمنيت أن أقوله وهو يعدل بالكثير من قصائدي، ما هو؟

نص البيت هو: وحبي واضح الرؤية ولا ينكره لك أحد.

هذا الكلام شهد به جماعة كانوا معه في منطقة الواسط وحتى أظنه في شبعة العيد بيت أشار إليه.

ويا ما من ليالي سامرك فيها ونقهد

وبيت بالقبل لاطفك من ذا الخد لا خد

وسلمتك ولاء قلبي هول من غير تحديد

قال هذا كأنه أخذه المفلحي من غرغوري.

وأما أغاني المحضار وأنا معجب بها كلها تقريباً تلك الأغنية التي يقدر فيها الراس وتشيب.

ميزة شعراء هذه المرحلة، أنك والمحضار شعراء وملحنون في وقت واحد!

هذه موهبة من الله سبحانه وتعالى، وهو بالحقيقة شاعر له نفَس طويل باللحن، فأنا ليلة من الليالي كنت جالسًا في هذا المكان وسمعت أحدًا من الجيران فك أغنية لفنانة تغني (يا حلان في الغيضة) واستمعت - لهذا المقطع - فكيف بدأ هذا الشاعر بالمقطع الأول، وكيف لعب بعواطفه وسط اللحن، وكيف القفلة كانت حقه - كان بديعاً جداً جداً حتى في أبسط الأغاني.

الواقع أن اللحن عندي يسبق الكلمة كما هو عند أستاذي المحضار، طبعاً عندما توضع اللحن تأتي بكلمات التي تلائم اللحن، إذا اللحن الحزين ترصد التقارب فيه أو تحاول إبعاد الهجر أو تشعر بعذاب فيأتي طبقاً للحن الموجود، فلما توضع اللحن توضع الكلمات على مستوى اللحن وأناته وآهاته، هذا هو فأولاً أبدأ مع نفسي بالدندنة وأسجله على (الريكوردر) وبعدين أتبع هذا اللحن وأشوف هل يشبه شيئاً من ألحاني أو ألحان المحضار إذا بعيد ألبسه بعدين بالكلمات.

المحضار ربي ما أعطاه موهبة الشعر فقط وإنما أعطاه الصوت الجميل.

أنا أعرف المحضار منذ أكثر من سبعة وثلاثين عاماً، ليلتها كنت مغادرًا الشحر ودخلت مسجدًا حصلت قدامي واحداً من الفقهاء من حبايبنا آل ابن الشيخ بوبكر في واحد من مساجد الشحر، لما دخلت المسجد وجدت حلقة فيها مجموعة يقرؤون في صحيح البخاري من ضمنهم حسين المحضار، وأنا ما أعرفه شخصياً وهو كذلك، في الوقت هذاك أنا خرجت لي أغنيتان (مايس القد، ورسول بلغ) وهو خرجت له أربع أغاني (على ضوء ذا الكوكب الساري وغيرها)، جاء الدور عنده للقراءة فلما كان يقرأ وهو شاب وأنا شاب أعجبت بصوته الجميل، المحضار ربي ما أعطاه موهبة الشعر فقط وإنما أعطاه الصوت الجميل، سألت واحدًا جنبي من هذا، قال لي: هذا حسين أبوبكر المحضار. قلت: هذا الشاعر، قال: هذا الشاعر.

المحضار شاعر عظيم، كثير العطاء، عميق المعاني، رصين القوافي.

عجيب...! ففكرت فيه، الموقف لا يحتاج إلى كلام، وقلت في نفسي: أنا لازم أجاريه مهما كان الأمر أنا أقول قصيدة، هو يقول قصيدتين، قلت قصيدتين خرج ثلاث، تعمقت في أغانيه إلا ذي أغاني جميلة...! فالمحضار شاعر عظيم في نفَسه طويل، كثير العطاء، عميق المعاني، رصين القوافي، شاعر عظيم هو يعتبر أستاذي، وهذا العملاق لا يعوض في عدة أجيال قادمة فهو كثير العطاء دائماً شاعر عظيم لا يستهان به وأظن المنطقة لن تتعوض بمثله على المدى القريب.

جلسة الشاي البخاري (السموار)

من ملامح صورة ذلك اللقاء، جلسة الشاعر الكبير/ صالح عبدالرحمن المفلحي، وهو يحتوي أدوات الشاي البخاري، ويداعب بأنامله الحانية أهداب الفناجين بمنشفة خضراء يدعك بها جسدها ويضعها في صحنها الزجاجي الصغير ليبدأ في (طقوس) السكب لحبيبات الماء الأحمر المغلي على بخار قمة (السموار) في (قاع الفنجان) وتعبئة ما بقي بالماء، وإذابة ملاعق السكر، المصحوبة (بحناتها في الفناجين)، هكذا التقاني في الدقائق الأولى، فأثار في داخلي شجوناً شتى، وبدأت أفكر وأتساءل: كيف لي أن أخوض في ثنايا تفاصيل حكاية هذا العاشق الشاعر الكبير؟ وقد أخجلني - كثيراً - بوداعته وحرصه الشديد على إظهار مودته المجسدة في تصرفاته العفوية مذ وضعت قدمي على عتبة باب غرفته، واستمر على هذا المنوال حتى لحظة المغادرة.